مع غزّة

جميلة عمايرة
حقّ أن يكون لك بيت وحديقة وحلم

تقف هذه الزاوية مع مبدع عربي في أيام العدوان على غزّة وكيف أثّر على إنتاجه وحياته اليومية، وبعض ما يودّ مشاركته مع قرّاء «العربي الجديد»

عمّان ـ **العربي الجديد**

■ ما الهاجس الذي يشغلك هذه الأيام في ظلّ ما يجري من عدوانٍ إبادةٍ على غزّة؟

لا شيء يشغلني سوى غزّة التي تُذبح من الوريد إلى الوريد بدمٍ بارد، والضمير الإنساني في سبات عميق. فقد سحقت الأرواح النقية البريئة، وتفرّقت الأسر، وهجّرت العائلات، وسويت المنازل بالأرض بعدما قصفت على رؤوس قاطنيها، وتوزّعت أشلاء حتى المدارس والمساجد والكنائس لم تسلم من آلة القتل الصهيونية العنصرية الهمجية. الخيام قصفت في ليل معتم والنازحون نيام، لتحترق جثثهم وهم لا يملكون شيئاً سوى الإيمان بالقضية العادلة، والتشبّث بالأرض واليقين بالمقاومة وبالنصر... «وما النصر سوى صبر ساعة».

■ كيف أثّر العدوان على حياتك اليومية والإبداعية؟

لأنّ هذا العدوان الهمجي الوحشي هو عدوانٌ على كلّ إنسان حرّ وشريف لديه قضية عادلة تتمثل بمقاومة محتلّ وحشي شرس، طال الشجر والحجر قبل الإنسان، لا أفعل شيئاً سوى متابعة الأوضاع والأخبار القادمة من غزّة؛ هذه المدينة الساحلية العظيمة بسجلّها المقاوم وكفاحها من أجل الحرية. أترقّب ظهور المقاوم «أبوعبيدة» ليمنحني المزيد من الاطمئنان على المقاومة وحتمية النصر، وهي تقاتل آلة احتلال بغيض وحشي لا يعرف سوى الإبادة والقتل والتدمير.

■ إلى أي درجة تشعرين أن العمل الإبداعي ممكنٌ وفعّال في مواجهة حرب الإبادة التي يقوم بها النظام الصهيوني في فلسطين اليوم؟

لطالما كان الشاعر المتحدّث الرسمي باسم قومه وقبيلته أو عشيرته، بمعنى من جملة المعاني التي يمثلها هذا الشاعر/ المثقف نقل الأخبار وتوضيحها وشرح وجهة النظر التي يعتد بصوابها. واليوم ثمّة أقلام حرة مؤمنة بعدالة القضية الفلسطينية، وبفعل مقاومة المحتل، نقلت وأوضحت السردية الفلسطينية لدحض سردية المحتل وإقامة الحجة أمام ما يزعمون. من هنا قمت بالمشاركة في كتاب «كُتّاب غزة» مع كتّاب من مختلف أقطار العالم، لتوضيح وتثبيت وجهة نظرنا وأحقية الإنسان الفلسطيني بالعيش في أرضه بحرية وعدالة. وخاصة أن العالم صار قرية صغيرة في زمن الاتصالات بوجود منصات التواصل المختلفة. في البدء كانت الكلمة وبالنهاية ستكون. وكما قال رب العالمين «يا يحيى خذ الكتاب بقوة».

■ لو قيّض لكِ البدء من جديد، هل ستختارين المجال الإبداعي أو مجالاً آخر، كالعمل السياسي أو النضالي أو الإنساني؟

الكتابة فعلٌ إنساني نبيل وشاق، يحتاجها الجندي في خندقه والعامل في مصنعه والأم في بيتها والمزارع في أرضه. أما الكلمة فهي مفتاح لكل سبيل وغاية إذا صدرت عن كاتب حرّ ينحاز لقيم الحرية والحق والعدالة، وليس من كتبة السلطان ومن ولاتهم! أظنني لا أجيد سوى فعل الكتابة ولا أظن بوجود طريق آخر لي سواها. ولأنني لا أريد أن أكون مثل «شهود يهوه»، قمتُ بالكتابة وفي أكثر من منصة عن غزّة وهي تقاوم محتلاً لا يجيد ولا يريد سوى ذبح غزّة وتفريغها من أهلها. أيضاً كان لي شرف التعاون مع بعض من الضمائر الإنسانية الحيّة لجمع ما استطعنا إليه سبيلاً وقمنا بإيصاله لأهلنا بشمال غزّة، وهم يقاومون الجوع والعطش وفعل الإبادة دون الركوع أمام المحتل.

■ ما هو التغيير الذي تنتظرينه أو تريدينه في العالم؟

لا أريد سوى أن يعمّ السلام بالعالم كلّه.

غزّة هي التي حرّرتنا من الخوف وهي التي ستحرّر العالم

لا أجيد سوى فعل الكتابة ولا طريق آخر لي سواها

جميلة عمايرة

في ذلك الوقت، فكان هو الذي يتحدّث باسم القبيلة ويحكي حالها. سأذهب بعيداً هناك فنجد، مثلاً، عمر بن كلثوم وهو يصف مدى تغلغل الأنا الجمعية في وعيه الشعري كقوله: «إذا بلغ الفطام لنا صبيٌ/ تخر له الجبابر ساجدينا».

ولعل الذي يحضرني الآن الشاعر عروة بن الورد، الذي خلع نفسه من قومه وتمرّد على السلطة ممثّلة بزهير بن جذيمة، الذي نصّب نفسه ملكاً على عبس، وشواهد ذلك في شعره كثيرة تدل على ثورته وتمرّده وشجاعته ونبله كقوله:

فلا أترك الإخوان ما عشت للردى
كما أنه لا يتركُ الماءَ شاربُه
ولا يُستضامُ، الدهرَ، جاري، ولا أُرى
كمن بات تسري للصديق عقاربُه
وإنْ جارتي ألوَتْ رياحُ ببيتها
تغافلت حتى يستر البيت جانبُه

كان عروة شاعراً جوّاداً، كريم الخلق ونبيلاً، فهو يُؤثر غيره على نفسه ويموت لأجل غيره، كما أنّه يرفض أن يرى جاره يذوق الضيم، وهو بغض الطرف، أو مشغولاً بمتع الحياة ولهوها. سأقول له كم أحتاج وجودك معنا الآن. ولا أظنّك ستخيّب ظني بك.

النص الكامل
على الموقع الإلكتروني

تصويب

حضارة لم نفهمها

باسم النبريص

بيض ألمانيا ينظرون إلى لاجئينا، غاضبين خائفين. أما مع قتلة الأطفال والنساء، فلقد بدوا فخورين جدًا بما فعلوه. لا يوجد مفكرون ألمان مؤثّرون في الحق. قلة هي الأقل من جميع بلدان القارّة. ألمانيا بلد الظلال والظلام. كنّا واهمين حيالها، وها هي الملهكة تكشف حقيقتها القديمة، من جديد. زرتها مؤخراً ورأيت نفسي في شوارعها الكئيبة، متضاءلًا داخل الاكتئاب، شظايا وأشلاء، مثلما هم أهلي هناك.

لقد بدوا فخورين جدًا بما فعلوه، لكن العزاء، هو هذا (عندي على الأقل): سوف ينتهي في المدى المتوسط. ذلك الثراء الذي جعل من البلد قاطرة أوروبا. بعض كتّابهم يتكلمون عن ذلك الثراء القديم بوصفه «غير مستدام».

اللهم لا تعطِ لأبيض مالاً للسلاح، وقلّل من فترات راحته وسياحته ورفاهه، بقدر ما تستطيع يا إله الغلاية الملوّنين. اللهمّ ويجب تقويض إحساسهم بعظمتهم وفائدتهم كذلك. أما مثقفونا هناك، فاضرب على يدهم، إن نووا امتداح حليف القتلة، بشكل مواربٍ. رباه وساعدنا في إزالة أسباب الصعوبة البالغة، عن عالمنا الشرقي، إذ يميل إلى البساطة والطيبة والسهولة، فهذه هي الحضارة بأتمّ معنى الإنسانية. والله، هذه هي الحضارة التي لم نفهمها ونقدّرها إلا على حين افتقاد، أنّ جثنا لاجئين للغرب.

(شاعر فلسطيني مقيم في بلجيكا)

بطاقة

كاتبة وقاصة وصحافية اردنية من مواليد مدينة السلط عام 1963، حاصلة على اجازة في الادب الإنكليزي من «جامعة فيلادلفيا». لها في القصة: «صرخة البياض» (1994)، و«سيدة الخريف» (1999)، و«الدرجات» (2004)، و«امرأة اللوحة» (2012)، و«حرب لم تقع» (2016)، اضافة الى مختارات قصصية بعنوان «دم بارد» (2005). صدرت لها رواية «الأبيض والاسود» (2017)، ولها رواية قيد النشر بعنوان «على حافة العتمة ويشبه الرقص».

مجلة

أوراق أسبوعية تقرأ أحوال بلاد النيلَين

أثر عن السودان من كلّ مكان

يؤكّد الشاعر والمحرر في المجلة حاتم الكناني لـ«العربي الجديد»، أن المشروع مرتبط بحياة الناس اليومية في الداخل السوداني وبدُول الشتات والمنافي

الخرطوم ـ **العربي الجديد**

في الثاني عشر من تشرين الأول/ أكتوبر الماضي صدر العدد الأول من مجلّة أثر الإلكترونية السودانية، بعد برنامج زمالة نظّمها «مركز فاكتس للصحافة» ضمّت قرابة العشرين صحافياً واستمرّت لمدّة عامين. شكّل عددٌ من ذلك الفريق نواةً لتحرير مجلّة تصدر أسبوعياً، كلّ خميس، وتتناول شؤوناً سودانية مختلفة في ظلّ الحرب الدائرة في البلاد منذ أكثر من خمسمئة يوم، بين قوّات الجيش السوداني و«قوّات الدعم السريع». وبعد عام تقريباً على انطلاق المشروع صار في رصيد المجلّة أربع وأربعون عدداً، حيث صدر العدد الأخير، الخميس الماضي، بعنوان «خرائط النجاة: جغرافيا الغرق». تواصلت «العربي الجديد» هاتفياً مع الشاعر والمحرّر في المجلّة حاتم الكناني، المُقيم في العاصمة الكينية نيروبي، والذي أوضح، بدايةً، «معنى كلمة «أثر» المأخوذة من الدراجة السودانية والتي تتقارب مع الكلمة الفصيحة «أثر»، لكن بقلب الثاء تاءً، وفي عبارة شائعة نقول «قصّاص الأثر»، وهو المتخصّص بتتبّع آثار الضائعين في الصحراء، ولهذا دلالاته في الحقل الصحافي الذي له دور كبير في تقصّي الأخبار الموثوقة خلال الحرب التي اشتعلت في 14 نيسان/ إبريل 2023». ويتابع الكناني حديثه لـ«العربي الجديد» عن المشروع عامّة، والعدد الأخير: «انطلقنا من همّ تقديم معلومة تتعلّق بمُباشرة بالحياة اليومية للناس في الداخل السوداني وبدُول الشتات والمنافي، حيث نعمل على السودان من كلّ مكان، وياتي تركيزنا على القطاعات الموجودة في الخارج كونها باتت تشكّل أغلبية الشعب، ومصدر الدخل الوحيد لمَن هُم في الداخل. في حين تشمل مقارباتنا الوضع الصحّي والتعليمي والثقافي، وهذه قطاعات كانت هامشية في برامج الحكومات حتى بعد ثورة ديسمبر (كانون الأول) 2018».

ويُضيف: «تعتمد المجلّة على أكثر من عشرين مُراسلاً في الداخل والخارج، والمعاناة في تحقيق هذا التواصل بين الطرفين كبيرة جدّاً بسبب ضعف الاتصالات والتهديدات الأمنيّة التي يتنازعها طرفا الصراع، وهذه تحدّيات قائمة بشكل دائم أثناء عملنا وليست هامشية ولا تفاصيل عارضة».

ورغم أنّ الحرب فرضت جوّاً حيّد الهوامش الثقافية التي يُمكن أن يُضاء عليها، إلّا أنّ المجلّة استطاعت أن تُناقش في أكثر من عدد قضايا في المسرح والفنون وعروض الكُتب، كما في عدد الرابع من تموز/ يوليو الماضي، حيث أعدّ كلّ من محمد حسين وأحمد جادين وهبيات الفاتح ملفّاً بعنوان «صناعة مسرح في زمن مستحيل»، تناولوا فيه ورشة «الصنابعي المسرحي التأسيسية» الدمازين بولاية النيل الأزرق، جنوبي البلاد، والعرض المسرحي «بنات في ورطة» الذي عُرض على خشبة مسرح كسلا، شمالي البلاد. كذلك كتب حاتم الكناني مقالاً مطوّلاً بعنوان «الثقافة: المسؤولية والمقاومة الإبداعية» (العدد 26، 18 نيسان/ إبريل 2024)، تناول فيه مشاهد ممّا خلّفته الحرب بقطاع الثقافة، مثل مقتل المسرحية الرائدة أسيا عبد الماجد، زوجة الشاعر الراحل محمد الفيتوري، في الأسابيع الأولى من الحرب، ومقتل المغنّية والباحثة في التراث الشعبي شادن محمد حسين، ورحيل عدد من الموسيقيّين والفنّانين في ظروف صعبة وقاهرة، قتلتهم الحرب بشكل غير مباشر، مثل الموسيقار محمد الأمين، والفنّان خالد سنهوري، وعبد الله يوسف (شاعر الاستقلال)، والحقوقي كمال الجزولي، والكاتب مهدي ادم يوسف. كما يُشير المقال إلى مهرجانات أفلام وعروض مسرحية ولقاءات ثقافية أقيمت بين الداخل والخارج في نيروبي الكينية، وكوستي وبورتسودان والقضارف السودانية.

تشمل مقاربات لقطاعات الصحّة والتعليم والثقافة المهمّشة

غلاف العدد الأخير

حاتم الكناني

سودانيات يحضرن عرضاً قدّمته «ورشة مسرح البنات» في ولاية النيل الأزرق

ولفت الكناني في حديثه لـ«العربي الجديد»، إلى أنّ «غالبية مُحرّري «أثر» قادمون من خلفيّة الصحافة الثقافية، وهم شعراء ومترجمون وكتّاب أصحاب تجارب أدبية وثقافية الجائهم الظروف إلى أن يتخلّوا، ولو مؤقتاً، عن التغطيات الأدبية ويُكرّسوا كلّ إمكانياتهم وخبراتهم للتغطية الميدانية». ومن الموضوعات التي أضاءتها المجلّة خلال عام من انطلاقتها واقع النساء السودانيات، حيث صدر عدد مُخصص في الذكرى السنوية الأولى للحرب بعنوان «في سنة الحرب ما يدور حول أجساد النساء»، وشاركت فيه كلّ من الكاتبات والناشطات/ين النسويات/ين: نعمات الحاج، ومحمد عبد الباقي، والتاية بدر الدين، ومجدي الجزولي. يُشار إلى أنه تصدر من الدورية الأسبوعية نسخة إنكليزية مرّتين في الشهر (كلّ يوم اثنين)، ويُساهم فيها تحريرياً كلّ من عارف الصاوي، ومحمد الصادق الحاج، وعمار جمال، وحاتم الكناني، وملاذ عماد، ومحمود دقش. وختم الكناني حديثه إلى «العربي الجديد» بتأكيده أنّ المجلّة «تُراهن على الاستقلالية في ظلّ الامتدادات السياسية العديدة التي تُحاول دائماً أن تشدّ المشاريع الناشئة صوبها والاستحواذ عليها، خاصة أنه في حالة كالسودان هناك استقطاب سياسي كبير، فضلاً عمّا تُعانيه قوى الثورة أساساً من انقسام».

قصائد

لاجئٌ يحمل بقجة الأرض على كتفه ويمضي

هنالك يتكلّم الغرقى

ذيميترا خريستودولو

الشاعرة اليونانية ذيميترا خريستودولو

لاجئون

انظُر كيف تتكدّس الخليقة
تحت نظر الإنسان.
ما الذي يتبقّى... ملاءة لا متناهية.
أطرافها سيحملها وحيداً.
سيصنع بقجة الأرض المسكونة،
وحتّى بقجة السهب والبحر.
على كتفه سيحملها
ويمضي.

■■■

أغنية صغيرة لتذكروني

أدوس على ظلّ شخص غريب.
ألبس ملابس عصفور.
أتكلّم بلغة آلة
مصنوعة من أوتار الماء.
أحزن على إناء الصلصال
الذي يحوي النفس،
تلك التي ولدتُها وربّيتُها
والتي لا إله يُطيقها.

في العتمات لم ألمس إنساناً.
في وضح النهار ثلج كثيف
فاشدُد عليّ الريش
فيكسرني هذا ويذيبني.
كبرت في مسمكة،
سمكةً كبيرة بلا حراشف
طفلاً لا ضرورة له
لكنّه من أمّ محترمة.

إذ صمّ أذنَيه عن تلعثُم
الأسفار وخبرات العشق
هامةٌ ملائكتي بإلهامٍ ربّات الوحي
غنّى، أوّل الكلّ.

الآن لا أحد. بنظّارتيَّ الصغيرتَين
أستشفُّ ارتطاماً وإكليلاً.
هذا العالم المندهش
سيُحرَم الماء والدم.

■■■

أسطُرلاب

أتكلّم من خلال فقّاعة بخار.
ما سمعني أحد قطّ.
ولم أرتئِ أنّ الأمر يستحقّ أن يَسمع أحَدٌ
أنينَ الأرض في خلاياي.
ساموت بهدوء مثل عصفور
يجده شخص في باحته بعد الثلج.
وهكذا يعلم أنّ قد مرّ من هناك
مخلوق عَزيد ومهاجر.
سيدوم حزن هذه اللّقية
بقدر الخطى إلى أقرب مستوعب نفايات
بعد ذلك سيذهب كلّ واحد إلى عمله.
الحياة واللحد دمية في يد
شاحنة النفايات.

لكنّني هذا المساء سالفّق رُباعيّة
كياسمين من جليد أزرق.
سونيتة من أقحوان في البحر
لتقطفها من تحت الماء أياد صغيرة.
أغنية - كنيسة من ملح
أضيئها برموشي الثقيلة.
سأرسل إشارة من المنارة إلى القوارب
أنّ هناك صخوراً تستقرّ في الدرب المنير
لتغيّر مسلكها حسب وَتد النّظم
هناك يتكلّم الغرقى بالفقّاعات،
هناك توجد قيامة أموات.

■■■

جنس الملائكة

من ضلعي سيُخلَق رجل
من ضلعه هو سيُخلَق شجرته
شجرة عقيم لكن ملأى بالأعشاش.
من الأعشاش سيُخلَق تغريدات
لا ترى لكنّها حماسيّة
كأنّما تُقابل الإله للتوّ.
هكذا إذاً سيُخلَق من جسد واحد فردوسٌ واحد.
من هذا الجسم، الفاني، الهشّ،
الذي يحمل رأسي الباهت.

بطاقة

Δήμητρα Χριστοδούλου شاعرة يونانيّة من مواليد أثينا عام 1953. درست الحقوق والأدب، وعملت في مجال التدريس. لها خمسة عشر ديواناً شعريّاً، من بينها: «سرو العمال» (1999) و«استيطان ساحلي» (2017). نالت عام 2008 الجائزة الوطنيّة للشعر وتكريمات أُخرى عديدة.

وكما عشت كذلك سأموت،
تواماً، قرينة لنفسي، مذكّرة.

لكن ما أرغب في خلقه هو
الهواء ملتحياً وخالداً،
زيوس في قمة شجنه
لا، لا يرمي الصواعق، ولماذا قد يفعل؟
له الرثاء، أولويّة أنثويّة،
فوق بيتي المهدمْ
ينذب، يقارع على القرميد
إذ خسر كلّ شيء، نور البصر
صلابة الثلج عند الفجر،
لمعة النزوة والصحّة.
وبقيت له الشيخوخة المتقدّمة فقط
تقترب أكثر فأكثر. بيقين أكبر فأكبر.

(ترجمة عن اليونانية: روني بو سابا)

فعاليات

تحت عنوان **فلسطين: ولاد الأرض**، يستضيف «مسرح المدينة» بيروت، ابتداءً من الثامنة من مساء الثلاثاء المُقبل، امسية موسيقية تضامنية مع الشعب الفلسطيني. الامسية من تقديم الفنّانة الفلسطينية **امل عكوَش** (غناء)، بمشاركة: **جورج الشيخ** (بزق)، و**مازن ملاعب** (إيقاع)، و**مكرم ابو الحسن** (كونترباص)، و**جو عوّاد** (غيتار).

تُقيم «مؤسّسة عبد المحسن القطّان» في رام الله، عند الرابعة من عصر السبت المقبل، جلسة نقاشية حول الكتاب الجماعي **غزّة على الشاشة** (2023)، بمشاركة مُحرّرته **نادية يعقوب**، وصانعة الأفلام **عزّة الحسن**. يستكشف الكتاب تأثيرات الأفلام ومقاطع الفيديو على السياسة والثقافة، وفعالية الصورة المتحرّكة في تغيير طبيعة النشاط التضامني والنضالي والتأثير عليه.

تستمرّ، حتى بعد غدٍ الجمعة، فعاليات الدورة 36 من **مهرجان المحرس الدولي للفنون التشكيلية** في المدينة الواقعة بولاية صفاقس التونسية. يشارك في التظاهرة، التي انطلقت الجمعة الماضي، فنّانون من الجزائر وليبيا والمغرب وفلسطين وسورية والأردن والعراق والكويت والسودان وساحل العاج وبريطانيا وفرنسا واليابان.

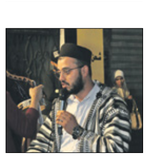

اعدني: رحلةٌ إلى البحر الأبيض، عنوان عرض حكائي - موسيقي يحتضنه فضاء «جدل للمعرفة والثقافة» في عمّان عند السابعة والنصف من مساء الجمعة المُقبل. العرض من تقديم الحكواتي وصانع الدُّمى **فيصل العزّة** (الصورة)، الذي يسرد قصصاً تراثية من المنطقة العربية، بمرافقة موسيقية لعازف العود **أحمد الفتلاوي**.

ثقافة

تخصّص «العربي الجديد» صفحة «نصوص الحياة والحرب من غزّة» لشعراء وروائيين ومسرحيين وفنانين من قطاع غزة، كي يعبّروا عن تفاصيل الحياة اليومية تحت القصف الإسرائيلي. هي نصوص تقول الحياة والإنسان من قلب الموت

نصوص الحياة والحرب من غزّة

علاء الغول شاعر

صورتان من ألبوم الموت

ذاكرة السجين لا تختلف كثيراً عن ذاكرة الحرب، المشهد نفسه يتكرّر يوميًا غير أنه في الحرب يختلف توقيت الحدث. في الحادي والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر 2023، بعد شهرين ونصف من اندلاع الحرب الشرسة على غزّة، قصف شديد بصاروخين قبيل الفجر يطاول عمارة جيراننا بمسافة لا تبعد أكثر من ثلاثة أمتار عن عمارتنا والمكان الذي كنت نائما فيه بالتحديد. لك أن تتخيل أن تصحو مفزوعا في منتصف غيمة كثيفة خانقة من الأتربة والدخان والعتمة المحيطة بك من كل ناحية وتنهال عليك النوافذ كاملة بألواحها الزجاجية والستائر وتسمع كل أصوات التحطم والإنهيارات من حولك ولا تشعر باللزوجة الدافئة من الدم الذي يسيل من أنحاء جسدك ولا تعرف كيف تم انتشالك من هذا الجحيم المباغت غير المتوقع والمتخيل.

هذا ما حدث لي. لا تزال العتمة تزيد من ربكة المشهد الذي اختلط بالصراخ والدعوات لانتشال الضحايا والمصابين من جيراننا. ما زلت أتذكر بكاء أولادي وصراخهم وهم ينظرون إليَّ بحيرة واستغراب وخوف. كان الأمر أشبه بحلم مفزع أو كابوس ثقيل، لا أحد يصدق ما جرى. كان الدمار مريعا في المكان والجثث والمصابون يتم إنزالهم بصعوبة من الطوابق العالية فقد تم تدمير الأدراج والسلالم بشكل شبه كامل وأكوام الحجارة والإسمنت وأثاث الجيران وأمتعتهم تسدّ مدخل بيتي وممراته والشارع أيضا، ليس سهلاً أن تصف الكارثة وقت حدوثها بالشكل الذي يعطيها حقها. صدمة المشهد تعطل اللغة والقدرة على رسم صورة كاملة. ما ورائيات المشهد أقسى وأعمق من الدمار الخارجي. إنها المعاناة التي ستتخذ كل ما يتصوّره العقل من تعبٍ وضنك وعذاب لا أحد يعرف متى ينتهي.

■■■

أقسى ما يعانيه الإنسان التشرد والخروج من مكان سكناه ولا يجد له مأوى يوفر له العيش الذي يحفظ له آدميته وإنسانيته واستمرارية الحياة. لك أن تتخيل مرة أخرى دمارا بدون مقومات من مياه أو طعام أو كهرباء، وعليك أن تنجو وتبقى وتستمر ومطلوب منك أن تصمد وتتعايش مع السيئ لأنك لا تعرف بعد ما هو الأسوأ. مشاهد عبثية تخلو من المنطق والعقل، فيما الدهشة الصامتة سيدة المكان، بمعنى أنك تموت وتقتل ولا أحد يسمع عنك أو حتى يكترث. كل المكان ترك ليواجه مصيره بنفسه. بعد أيام من القصف يعتاد الجيران وسكان المنطقة على ما جرى ويصبح الخراب والركام جزءاً مألوفاً من صورة الحي. كلما وقعت

إنها المعاناة التي ستتخذ كل ما يتصوّره العقل من تعبٍ وضنك، وعذاب لا أحد يعرف متى ينتهي

عيناي على مشهد الدمار الباقي حتى الآن تتجدد الذاكرة يعود بي شريط المشهد إلى أوله ولا أعتقد تقنيات السينما الحديثة تستطيع أن تختزل وتصور لحظة ما حدث. هناك أشياء شعورية ونفسية لا تصل لها الكاميرا ولا تتسلل لها مهارة المخرج. سأتذكر كل شيء وكل ما حدث لي وللمكان ولا سبيل لنسيان ما حدث.

اليوم الحادي عشر من حزيران/ يونيو 2024 قبيل الفجر مرة أخرى يستهدف القصف المروّع منزلا مقابلاً لنا لا يختلف الدمار والخراب عن سابقه وعن أي قصف آخر حتى مشهد الضحايا والمصابين أيضا هو نفسه. في أقلّ من ثانية يتحول المكان إلى جحيم وفي طرفة عين ترى أثاث ومقتنيات جيرانك قد تناثرت في بيتك وفي الشارع. إنه انتهاك لخصوصية بيت آمن بكل ذكرياته وما به من أشياء يحرص أهله على حجبه عن عيون الناس؛ القصف لا يعترف بكل هذا ولا يكترث لمشاعر المستهدَفين والضحايا إنه جريمة بكل أبعادها الإنسانية والنفسية والمعيشية.

■■■

ألبوم صور يتناثر هنا وهناك، الملابس في خزاناتها أصبحت مكشوفة وملقاة على الرصيف وتحت الردم، ماذا يدور في مخيلة المنقذين والمسعفين والمعاونين من الجيران حين يمسكون ويلمسون ملابس لا تقلّ حرمة عن حرمة النساء والصبايا وسكان المنزل المقصوف. في كل قصف هناك زاوية يُرَى منها الحدث بصورة مختلفة، يتشابه الخراب والدمار وتختلف الحكايات التي خلف كل كارثة تلحق بأي بيت من بيوت غزة على امتدادها من الشمال إلى الجنوب ومن شرقها لغربها. الغريب في الأمر أنه كلما طال أمد الحرب قل الشعور بالفزع، ببساطة تصبح هناك ألفة شعورية بين الموت والمكان، بين الخراب ورائحة الدخان والبارود، إنه الاعتياد على المشهد نفسه قد يبلد الإحساس ويصبح منظر الدم عاديا. هذا في حدّ ذاته ينعكس سلبًا على المنظومة السلوكية والنفسية للناس. لا عجب إن أصبح الناس أكثر قسوةً وخشونة في التعامل فيما بينهم وأكثر جرأة على علاقاتهم بعضهم ببعض.

هذا ما شاهدته خلال الحرب اللعينة. بالرغم من هبّة الناس المخلصة لإنقاذ جيرانهم إلا أن هذا يتسرب في اللاشعور ويتحوّل إلى ضرب من ضروب الانشغال بالحياة ومستلزماته وينقفل المشهد بعد وقت قصير جداً كأن شيئا لم يكن. ما لفت انتباهي في قصف اليوم رائحة الهواء فقد تشبعت، بالرغم من الغبار والبارود، برائحة لحاء الشجر الذي تقصف وتحطّم وتهشم من ضخامة القصف، أنظر إلى الشجر المحيط بسور بيتنا كيف تحول إلى لون رمادي عليل وقد تكسر بشكل مؤلم وكأنها توصل رسالة مفادها أن مصيرَ الشجر لا يختلف عن مصير البشر. شجرة عمرها ربع قرن ينتهي وجودها في أقلّ من لحظة كما ضحايا القصف الذين قضوا في رمشة عين. لقد أنهكنا تنظيف بيتنا من ركام جيراننا وتحت كلّ حجر أو نافذة تجد بقية شيء وأشياء تثير الحزن والألم.

■■■

ما بني في عقود طويلة من تعب وعناء وانتظار وحبّ ينتهي في ومضة زمنية لا يمكن حسابها ذهنياً، يا لسخرية الأقدار وهي ترفع الغطاء عن حقائق وجودية يغفل عنها الناس جميعهم، أن الحياة بكل ما فيها من تشويق وإثارة ومتع لا تعدو أن تكون قفزة في حلم قصير جدًا وأنّ الناس حظهم أن يكونوا ضحايا كوارث لا دخل لهم بها كما الحرب الدائرة على غزّة يقتل فيها الآلاف ويشرّد الآلاف ويصاب الآلاف ولا شأن لهم بالحرب.

عمل للفنان الفلسطيني مروان نصار

محمد غنيم كاتب

بين الشك واليقين

مثقلٌ بذنوبي وذنوب العالم، كأسي مليئة يغبّ العالم منها ويزيد، نهمٌ مفرط للحياة يملؤنا ثم ماذا؟! تعذبنا الشكوك وتنهب أجسادنا بكل ما فيها من استقرار، فراغ مطلق ذاك الفراغ الذي تتركه، فراغ إن تملّكنا متنا ونحن على قيد الحياة، الشك واليقين مفردتان تراوداني منذ مدة، أفكر كثيراً ولا أجد الجواب.. لا أجد الخلاص.

عندما يولد طفل جديد تقرّر الحياة كم سيعيش وكم ليلة سينام، هذا ما أؤمن به منذ كنت صغيراً، كلّ المعاني تتغيّر في حربِ الإبادة التي نعيشها، ولعلّ أكثر الأشياءِ التي أحبّها باتت جحيماً حارقاً لا يمكن تجاوزه، هو الليل عشقي الأزلي، الليل وحده ما كان يرمز إلى السكينة والهدوء، والانعزال والتأمل. في كثير من الأحيان، كانت ابنتي «إلين» تأبى النوم إلا بعد ممارسة طقسنا اليومي المتمثّل في الجلوس فوق سطح البيت متأملين السماء المليئة بالنجوم التي يتوسطها قمر كبير ليبدأ بالتقلص مع كل ليلة، تنام إلين في حضني هائمةً في بياض القمر مسحورة تظل تقفز بين النجوم إلى أن تغفو شيئاً فشيئاً وكأن القمر يسرق يقظتها تدريجياً، أنزل بكلّ خفّة درج البيت وأنا أحملها بين أحضاني، أودعها في سريرها بكل هدوء وننام في عتمة الليل الحنون، أذكر جيداً كم كانت آخر ليلة قبل بدء الحرب هادئة وصافية، كم كانت مستقرةً ودافئة، تحدثت فيها مع زوجتي عن كلّ ما هو آتٍ، مشاريع، ومستقبل، والتقديم للجنسية المصرية فجدّتي من مصر، والسفر، والراتب الجديد وكم يمكننا الادخار منه، تحدثنا عن كل شيء حالم ووديع..

■■■

صباحاً استيقظنا على أصوات مريبة، لم ندرك جيداً في أولى لحظات الصباح أنها كانت الليلة الأخيرة التي ننام فيها نوماً هنيئاً، تابعنا قنوات الأخبار فوراً وعرفنا أن القادم لا يمكن وصفه إلا بالخراب، ابتلع اللون الأحمر كلّ تفاصيل السواد في لياليا، والضجيج أعلن حضوره وهيبته معلناً قصف أماكن جديدة، كلما سألتني ابنتي عن هذه الانفجارات وهي ترتعش خوفاً ضممتها سريعاً وقلت: لا تخافي يا ابنتي هذه أصوات انفجار بالونات كالتي تحبين اللعب بها.

■■■

الهدوء السرمدي والعزلة الليلية باتت كوابيس حيّة وانقلبت إلى صراع خانق من الرعب والقلق واستجداء النوم، إلين لا تستطيع النوم إطلاقاً ومن منا يستطيع، أدعو الله أن تنام، أمّا أنا فليس مهماً على الإطلاق أن أنام أم لا، أصوات القصف توقظنا مرة تلو الأخرى، انقلب هدوء الليل وحشاً من صخب يأكل قلوبنا، وأصبحنا ندعو الله أن يثبت شمسه في كبد السماء وألّا يأتي الليل إطلاقاً، لم يحدث ما تمنيناه وباتت إلين وأطفال غزة بأكملها يخافون النوم ليس من صوت القصف أو رعب حمم النار المتساقطة فحسب، ولكن خوفاً من حساب الحياة لأيامهم التي ناموها، كل طفل بات يخشى أن تكون تلك ليلته الأخيرة، فقرروا ألا يناموا ليلاً ولا نهاراً وبهذا لا يمكن لأعمارهم أن تنقص.

سألتني زوجتي بعد عدّة أشهر من الحرب ولكن هناك أطفال ماتوا، ما تفسيرك؟! أجبت: هم تعبوا من صحوتهم، فأخذ كل منهم غفوة سريعة من دون سطوة منه على جسده، فتسلل الموت في الليل ليخطفهم ويضع حداً لأعمارهم ومعاناتهم.

■■■

اليوم المائة للحرب أي إننا لم ننم جيداً منذ أكثر من ثلاثة أشهر وما زلنا نهرب من الموت مع كلّ غفوة، وما زالت إلين تحارب الليل وخوفه كلما سمعت قصفاً قالت: متخفوش.. هاد بالون كبير وصوته عالٍ، صح يا بابا؟!، أجبت: صح يا بابا، عندما تسكت أصوات انفجار البالونات سنصعد إلى السطح مرة أخرى ونتأمل القمر والنجوم لننام من دون خوف أو قلق، ردت إلين: يا رب يخلصوا البالونات بسرعة. ساد صمت طويل قبل أن تهرب من عيني دمعة ثقيلة، شددت على يد ابنتي وقلت: يا رب يا بابا.. يا رب.

ثم نمنا نوماً مرتجفاً، نوماً يتربص به اليقظة والقلق.

- أين أنت؟!

- هنا حيث وصلت الدبابات وخاف الناس.

- عند نزوحك أين رحلت؟!

- هناك عند الأمان الزائف.

- ماذا تقول في وطنك؟!

- كما قال غسان كنفاني لصفية «الوطن ألا يحدث هذا كله».

- هل تعبت؟!

- جداً ولا أعرف متى ينتهي ما نحن فيه.

- استدر واخرج من ذلك الباب.

التفتُّ خلفي وكان باباً أبيض يوحي براحة وبرودة ناعمة، مشيت مسحوراً دفعت الباب وخرجت بعد أن غشاني نور أبيض ناصع، استيقظت من نومي فوراً وفي لحظة إدراك عابرة نظرت إلى جسدي المتعرق وتنفسي المتسارع، كأنني توقفت عن الجري بعد هربي من وحش ما، كانت تلك آخر ليلة أبيتها في بيتنا، كان ذاك اليوم حين أمطرت مناشير ورقية مفادها إخلاء المنطقة التي أسكن فيها لأنها منطقة قتال خطيرة.

■■■

مطرٌ من أوراق متساقطة نذير شؤم اجتاح المكان، أطفال يركضون مئات الأمتار يلتقطون بعض تلك الأوراق، يصرخون، يبكون، لقد حلت الكارثة.

أجلس وسط حوار صارخ وترامٍ بالكلمات بين الأعمام والأخوال، أبي كان واضحاً (لن أترك بيتي حتى لو ذبحوني)، أعمامي وآخرون يصرخون (معنا أطفال ونساء كبار في السن، لا طاقة لنا بالجري هنا وهناك إن اشتدّ الوضع)، أما أنا فأنظر إلى ابنتي إلين صاحبة الثلاثة أعوام وهي تركض هنا وهناك متجاهلة كل مخاوفنا لتلهو خلف فراشة دخلت البيت خلسة، كانت الشك الوحيد واليقين لكل سؤال، صرخت (أنا اتخذت قراري، غداً سأخرج أنا وعائلتي، ولن يحدث في ملك الله إلا ما أراد الله)، نظرت إلى جدي يساراً وأنا الذي كان يلومه على خروجه من البلاد باستمرار، نظرت إلى ابنتي في الجهة المقابلة... وبكيت.

■■■

في مواصي خانيونس وقريباً جداً من البحر نصبنا خياماً وانشغلنا بوضع أغراضنا إلى أن فاجأني سؤال زوجتي (أين اختفت إلين؟)، ركضت حول الخيام المترامية بعشوائية مفرطة، بين أوتاد الخيام والأشجار خلف الحائط القريب، سريعاً التفت حول خيمتنا بعد أن سمعت صوت ضحكات قادمة من هناك، هذه المرة وجدتها تركض خلف خنفساء حمراء. التقطت صورة لأولى لحظاتها هناك، جاءت زوجتي سألتني«جميلة»؟؟

مددتُ يدي فتحت الهاتف أريتها الصورة ابتسمت وقالت جميلة جداً، أما أنا فلاحظت للتو ظهور الخيمة في الخلف فضاق صدري حد الجنون، خرجت من هناك سريعاً جلستُ أمام البحر تأملته كثيراً، لا شيء مطلقاً يجول في رأسي، فراغ مخيف وبرودة قارسة اجتاحتني.

■■■

في بلادي يختلط الشكّ باليقين، فإن كنت تحب الشتاء لأجل المطر فستكرهه حين تمطر أوراقاً تنذرك بالإخلاء لأن مكان بيتك مربع قتال خطير، وإن كنت تحب الليل لسكونه وهدوئه فستكرهه لصخبه وخوفه وأصوات صراخ المستغيثين من قصف يملؤه وأصوات إسعافات تخرق هدوءه وصواريخ تقلب سواده نهاراً بلون الدم بين الفينة والأخرى.

في بلادي ستتأرجح باستمرار بين الشك واليقين، فلا يمكن أن نحكم على أفعال مضت لأجيال سبقتنا بيقينٍ مهتز، ولا بشك ثابت. كل ما أريده أن يذهب الشك واليقين إلى الجحيم وتبقى عائلتي وابنتي بسلام.

لعلّ أكثر الأشياء التي أحبّها باتت جحيماً حارقاً لا يمكن تجاوزه، هو الليل عشقي الأزلي